

القصة الدينية وحوار الحضارات

قصة النبي سليمان نموذجاً

الدكتورة: رحمة شيتير

قسم الآداب و اللغة العربية

جامعة محمد خيضر- بسكرة

من هو الله سؤال طرحه سيدنا إبراهيم عبر التدبر في موجودات الكون قال الله " فلم جن عليه الليل راء كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين(76) فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينني ربي لأكونن من القوم الضالين(77) فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال لا يا قوم إني بريء مما تشركون(78)سورة الأنعام

وقد ربط الوجود الإلهي بقدرة عجيبة لا تتحقق في استعاب ظاهرة لأخرى، فانطلق من النظر بحثا عن الإله، فالموجودات التي اعتقدها إبراهيم إلهاها تشترك في مجموعة من الخصائص ، فهي ذات طبيعة مساوية بعيدة المنال لا تطالها أيدي البشر، إن هذا الاشتراك يقوم أيضا على مبدأ الإلغاء فالشمس بزوغها وكبرها ألغت ألوهية القمر، والقمر بخواصه ألغى ألوهية الكوكب .

إن هذا الإلغاء امتد للخروج أو إعلان الثورة عن عبادة الآباء الوثنية يقول الله: "إذ قال إبراهيم لأبيه ءازر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين" ("سورة الأنعام 74)

إذن أفضى تدبر إبراهيم إلى تجلي الأمر الإلهي عبر دوال تفضي إلى وجوده ، وحتى بعد هذا الإدراك وتجاوز البحث عن الله ظل السؤال مشروعا" وإذ قال إبراهيم ربي أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي" (سورة البقرة 260)

انتقل السؤال من البحث عن الله إلى البحث في الفعل الإلهي عبر فعل خارق إعجازي

ملازم للإنسان منذ وجوده هو فعل الإحياء والإماتة ، لا يقوم هذا الأمر على التشكيك في الوجود الإلهي ولكن يؤسس لتوطيد هذه العلاقة عبر إدراك الفعل وتقريبه من الغيب إلى المحسوس تتجلى هذه الرغبة في صورة نبوية أخرى هي صورة موسى عليه السلام في بحثه الذي يرتبط بالرغبة في رؤية الله "ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني انظر إليك قال لن ترني ولكن أنظر إلى الجبل فإن إستقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين" (سورة الاعراف الآية 143) .

إن بحث سيدنا موسى عن الرؤية كان بحثاً عن مؤشر حسي يعضد مؤشراً آخر هو التكليم الإلهي لتتحد العلامة الإلهية الغيبية بالعلامة المحسوسة .

إن القصتين ترتبطان بالبحث والاستقصاء حتى بعد إدراك الحقيقة المطلقة مما ينفي نصياً التعارض بين العقل والدين ذلك التعارض الذي يفضي إلى إلغاء "العدل الذي لا يمكن أن يوجد في الأرض بل ستسود رؤية داروينية تذهب إلى أن أي مفاهيم أخلاقية إن هي إلا مؤامرة الضعفاء على الأقوياء وأنه لا يوجد قانون للأرض ، وإنما يوجد صراع فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان" (عبد الوهاب المسيري /اللغة والمجاز ص 6)

هذه الرؤية عمقتها التطور العلمي "وعمليات التحديث الاجتماعي والاقتصادي والثقافي (...)غير أنها سرعان ما سارت في الاتجاه المعاكس إذ أن ما كان يفترض أن يكون سبباً في إنهاء الدين ، أعاد المد الديني بشكل أعمق وأحد" (صموئيل هنتنغتون صراع الحضارات ص 193)

فسادت رؤية عصبية ضيقة أججت الصراع الذي كان الدين فيه طرفاً محورياً خاصة بين أصحاب الديانات المنزلة الذين تطرفوا فاليهود يرون أنهم شعب الله المختار "والمسيحيون يرون أن المسيحية دين متفوق بصورة مطلقة" (عبد الله إبراهيم المركزية الغربية ص 119) والمسلمون يرون أنفسهم أوصياء على الدين غير أن ما يرد في الكتب السابوية مختلف فأنجيل متي يقول " لا تضنوا أي جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء ما جئت لألغي بل جئت لأكمل"

والقرآن يقول: "و قالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون" (سورة البقرة الآية 113) إذن هناك حلقة مفقودة بين واقع نضي يشرع منطق السؤال ويتأسس على أعمال العقل والتدبر والافتتاح على الآخر، وواقع مادي يقوم على الصراع. وقد قضى الله أن يكون القرآن آخر الكتب السماوية "مصدقا ومهيئنا، فلا كتاب بعده، فالقرآن جاء للناس كافة وخطابه العالمي يتأسس على التوجه لاستعاب كافة المناهج المعرفية والديانات" (أبو القاسم حاج حمد ابستمولوجية المعرفة الكونية ص 324) دون أن يكون في الأمر فرض قسري للآخر الذي يجب أن تراعى قدسيته "هذه القدسية المستمدة من الأديان التي يمكن مقارنتها بالإسلام وهي الأديان المنزلة" (طه عبد الرحمان الحق الإسلامي في الإختلاف الفكري ص 258)

من هذا المنطلق الديني المنفتح على وحدانية الله وتعدد طرائق الوصول إليه يأتي البحث في القصة الدينية ومؤشرات اشتراكها الرمزي ودلالة هذا على وحدانية الباعث فقد سأل اليهود الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن قصص وأخبار سألقة إثباتا لنبوته كما هو الحال مع قصة أهل الكهف وذوي القرنين لأن فعل الإخبار عن هذه القصص له دلالته الخاصة .

وتشكل القصص جزءاً غير هين من النسق العام للأديان وتقوم في الغالب بوظيفة الوسيط في فرض الأمر أو النهي عنه، فعبّر تمثل شخصيات القصة تقوم الذات باستلهاام الأحداث لصالح فعل ما.

إن للقصة الدينية تأثير خاص فورودها ليس ترفاً فنيا بل تحضر القصة بوصفها علامة دالة لها أبعاد تداولية محددة خاضعة لسياقات ورودها واستدعائها.

قصة النبي سليمان :

يشير إنجيل متي إلى ملك سليمان دون الإشارة إلى القصة وأحداثها، أما في الأصحاح العاشر، يقول الكتاب:

“وسمعت ملكة سبأ بخبّر سليمان لمجد الرب، فأنت لتمتحنه بمسائل. فأنت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً، بجمالٍ حاملةٍ أطياباً وذهباً كثيراً جداً، وحجارةً كريمةً، وأنت إلى سليمان،

وكلمته بكل ما كان بقلها. فأخبرها سليمان بكل كلامها. ولم يكن أمرٌ مخفياً عن الملك، لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبا كل حكمة سليمان، والبيت الذي بناه، وطعام مائدته، ومجلس عبيده، وموقف خدامه وملابسهم، وسقائه، ومحرفاته التي كان يصعداها في بيت الرب، لم يبقَ فيها روحٌ بعد.

“فقلت للملك: صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك. ولم أصدق الأخبار، حتى جئت وأبصرت عيناي، فهوذا النصف لم أخبر به. زدت حكمةً وصلاً على الخبر الذي سمعته. طوبى لرجالك، وطوبى لعبيدك، هؤلاء الواقفين أمامك دائماً، السامعين حكمتك. ليكن مباركاً الرب إلهك الذي سُرَّ بك، وجعلك على كرسي إسرائيل. لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد، جعلك ملكاً لتُجري حكماً وبرا.” (1مل 9:1-10) (موقع إلكتروني)

تحليل قصة النبي سليمان في القرآن الكريم :

يركز هذا التحليل على الأبعاد التواصلية التي تستشف من القصة في الإطار الإنساني والكوني الذي يفتح على محاور دينية تفضي بتسليم ملكة سبا بوحداية الله ملك سليمان يقدم القرآن صورة عن ملك سليمان تقوم على مبدأ التسخير إما بذكره صراحة "فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب(36) والشياطين كل بناء وغواص"(سورة ص الآيتين 37/36). أو عن طريق صيغة لغوية هي صيغة المبني للمجهول "علمنا منطلق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا له الفضل المبين (16) وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون(17)" (سورة النمل). والملاحظ أن "القدرة المحشودة لسليمان أي للخليفة في الأرض كانت تفوق مقومات تكوينه الذاتي يأتي هذا التسخير في الاستخلاف كنوع من التفاعل بين الحق وشرعته فتكون علاقته بها علاقة تفاعل ووحدة "

2-العناصر الحيوانية وأبعاد أفعالها السيمائية

يبدو الحيوان عنصراً كونياً متناغماً مع الفعل الإنساني مسخرًا لصالحه إن حركته وسكناته دوال لا تقوم بأفعال إعتباطية و إنما لها وظائف متعددة تبعا للسياق الذي استدعاها، فالغراب مثلا له وظيفة تعليمية وناقة صالح لها وظيفة إقناعية والحية لها دلالات خاصة في

قصة الخلق إلى غير ذلك. وعليه فإن العناصر الحيوانية المستدعاة في قصة سليمان تقوم بسلسلة من الأفعال تتحول إلى علامات سيميائية دالة يناط بها إنجاز فعل ما وفق ما يلي 1-2- النمل .

(و حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون (17) حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل أدخلوا مسكنكم لا يحطمنكم سليمان و جنوده وهم لا يشعرون (18) فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين(19)"(سورة النمل).

"لم يحط سليمان علماً بوجود نمل في الوادي الذي حشر فيه جنده إلى أن النملة تدعو سائر النمل لدخول مساكنهم تفاديا لما يمكن أن يتأتى عن وجود سليمان وهم لا يشعرون بتأثير موقعهم في الوادي فالعناية سمة من سمات القدرة المطلقة والعلم الحاط بأكثر مما يتوفر للبشر وقد عمد الله إلى إعلام سليمان بإسماعه النملة المخاطبة". (العملية الإسلامية الثانية ص 51) لقد سمع سليمان النملة وهي تحذر مجتمع النمل إنها الحاكمة وعلى عاتقها مسؤولية إقامة العدل عن الطريق

*تحذير مجتمعها إذ أمرتهم بالدخول إلى مساكنهم

*تقدير فعل الآخر إذ جردته من قصديته التدميرية (ليحطمكم سليمان و جنوده وهم لا يشعرون)

إن رؤية الآخر بهذا الشكل العادل أفضت إلى رد فعل من سيدنا سليمان هو التبسم فتبسم ضاحكا من قولها

إن صورة النمل على صغرها هي امتداد لمبدأ التسخير الإلهي فهذا الحدث يشكل علامة دالة كما سترى في الصورة الموالية

2-2- صورة الهدد

"وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدد أم كان من الغائبين(20) لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحه أو ليأتيني بسلطان مبين(21) فهكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنيا يقين(20) (سورة النمل)

يعرض السياق القرآني حالة جديدة هي حالة افتراض العصيان المتضمنة غياب الهدد، وسليمان مطالب بالحفاظ على ملكه وهو درس يستفاد من فعل النملة الذي لم يكن فعلاً عابراً فقد أفضى ذلك اللقاء إلى إنجاز فعل احتمالي مؤداه صورة النملة وحفاظها على عرشها، إذن فعل اللقاء في واد النمل شكل علامة سيميائية دالة نتج عنها شكر النعمة قولاً وفعلاً ، يرتبط الشكر فعلاً بالحفاظ على القيمة الحياتية المعطاة لاستثمارها في خدمة هذا النظام الكوني

إذن فعل مروق الهدد المقترض يقتضي فعلاً ردعياً لئلا يختل النظام ، وعليه فإن التوعد في قول سليمان (لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبین) يرتبط بجانبين ، جانب يعني الهدد والجانب الآخر يضم وأد الفوضى التي قد يسببها مروق الهدد وخروجه عن دائرة حكم سليمان إن العدل مفهوم مطلق يعود للواحمة فبعد التوعد يبرز نور العدل (أو ليأتيني بسلطان مبین)

وتتجلى الحقيقة في خطاب سليمان فالهدد دال يومئ إلى محدودية علم سليمان وسلطته وغيباه لا يتأني فعلاً إرادياً يقوم به وإنما تنفيذاً للمشيئة الإلهية" (العالمية الإسلامية الثانية ص 50) إذ يمكن لهذا المخلوق الضعيف الذي يشكل واحداً من جنده أن يحط بما لم يحط به سليمان ، ويظهر لاحقاً دال آخر يعضد هذا الأمر ويتضافر معه وقد وسمه القرآن ب(عنده علم من الكتاب) لقد كان سليمان مستخلفاً على هذا الرجل ولكن الرجل كان قادراً على فعل ما يعجز عنه سليمان (العالمية الإسلامية الثانية ص 40)

إذن يأتي الهدد ليقدم لسليمان تبرير غيباه ، فقد أكتشف مملكة عظيمة أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، إنها تشترك مع سليمان في الإتياء فالعطاء الرباني غير محدود أقول تشترك مع سيدنا سليمان في العطاء وتختلف عنه في المعبود تسجد وقومها للشمس ، التي تشكل ظاهرة طبيعية ولكنها ترتبط كثيراً بالمعتقد الديني ، فقد ارتبطت من قبل ببحث سيدنا إبراهيم عن الحقيقة أما بالنسبة لسيدنا سليمان ، فإنها تشكل جزءاً من المسخرات وإن لم تكن هي عينها فإنها مرتبطة بها كما هو الشأن بالنسبة للريح .

إن ارتباط الهدد بهذه الوظيفة الكشفية ليس اعتبارياً إذ للهدد قدرة كشفية خاصة إذا

أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجيئ فينظر لهم هل هذه البقاع من ماء ، وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى أنه يرى الماء تحت تخوم الأرض (قصص الأنبياء ص410)

الكتاب (في قصة سليمان) واستراتيجية التواصل

3-1- الآخر في مواجهة الأنا

لقد أرسل سليمان الرسالة مع الهدهد وفي هذا إيماء إلى مبدأ التسخير الإلهي الذي يحظى به أفتح الكتاب بالبسملة وذكر الله ليعلم منذ البدء انتماء ه الديني كاشفا عن المعبود (الرحمان الرحيم) أما الشق الثاني من الخطاب ألا تعلوا على وأتوني مسلمين فإنه يضم خطاباً مفاده التنويه بقوة سليمان ليضع الطرف الآخر في مواجهة هذه الحقيقة وقد أوضح السياق القرآني مبلغ إثناء الملكة ومبلغ التفوق السليمانى

مملكة سليمان

الريح عنصر طبيعي مسخر

علمنا منطلق الطير

أوتينا من كل شيء

حشر لسليمان جنوده من الجن

تفضي هذه الأفعال إلى الشكر والحمد الملازم لفعل سليمان بعد كل إثناء خارق .

مملكة سبأ

الشمس عنصر طبيعي معبود

أوتينا من كل شيء

أولوا قوة وبأس شديد (تجلي القوة).

3-2- صورة الآخر بوصفه أنا

تتحول صورة الملكة من صورة الآخر إلى صورة الأنا إذ يفضي تلقيها لخطاب (سليمان) وتحول السياق من مجلس سليمان إلى مجلسها إلى تحولها إلى أنا ، فالأنا والآخر في نهاية الأمر مصطلحين يتبادلان الأدوار و يخضعان للسياق فالآخر يصبح أنا والأنا يصبح الآخر

تبعا لما يستدعيه مقام الكلام ،يفضي خطاب الملكة إلى تشكيل صورة عنها من خلال أقوالها بعد أن وصف الهدهد أفعالها لقد نظر الهدهد إلى جانب خارجي فقط هو القوة عظمة العرش وعبادة الشمس.

ويكشف الحديث عن جوانب خفية في الملكة فالآخر الذي يختلف عني في الدين لا يعني أنه يختلف عني إنسانياً،وهذا ما بدا جلياً في كلام الملكة إذ وصفت كتاب سليمان بالكريم، يشكل هذا الوصف مؤشراً رمزياً عن إحترام الملكة للآخر المختلف بوسم كتابه بهذا الميسم .
الملكة واحترام الآخر المؤلف

إن طبيعة حديث الملكة مع أهل مملكتها تؤدي إلى أن الحوار سمة بارزة "يا أيها الملؤ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون 32 قالوا نحن أولوا بأس شديد والأمر إليك فأنظري ماذا تأمرين 33 قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون 34 وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون"(سورة النمل)
ينشأ حوار بين الملكة والملأ ينبنى "على أساس مجموع الوقائع والحقائق و الإعتقادات والقيم التي يفترض المتكلم معرفة المخاطب لها أو حتى إيمانه بها" (إدريس سرحان طرق التضمين الدلالي والتداولي ص152

ويشكل احترام الآخر حلقة مهمة من حلقات تبادل الحوار وهو ما يتجلى في خطاب الطرفين، وإن كانت الملكة تتفوق على رعيتهما في هذا الأمر ، إذ تتمكن من إخفاء وجهة نظرها حتى لا تكون عامل تشويش أو تأثير على رأي الطرف الآخر و تصر على استبطان رأيهم (افتوني في أمري) (ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون)
يأتي جواب الملأ (نحن أولوا بأس شديد) إن الملكة تدرك هذا الأمر ولكن هناك خطاب مضمحل خلفه هو خيار الحرب والمواجهة الذي يفضله قومها , وعليه تلجأ الملكة إلى التضمين عبر خطابها (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة)

كلام الملكة ينجز فعلاً كلامياً فخواه رفض وجهة نظر قومها إذ تكلم الملأ عن قوتهم ولكن تطبيقياً تغيب عنهم معطيات أخرى هي قوة وبأس الآخر ، فكلام الملكة و إن كان إخبارياً فإنه يحمل قوة استفهامية مؤداها ماذا لو كان الخصم يفوقنا قوة ، إن هذا التساؤل ليس شكاً

بل يقينا إذ ترجح قوة الآخر بعرض فعل الملوك إذ دخلوا قرية ، إن بعد النظر في هذه المسألة يعضد تفوق الملكة السابق في استراتيجية الحوار واحترام الآخر ، مما يثبت أهلية الملكة على قومها الذين امتازوا بالتسرع في إضارهم خيار الحرب ، بينما أقصت هي هذا الخيار وعوضته بخيار استطلاعي (إني مرسله إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون) إذن الهدية دال رمزي يخرج عن مدلوله القائم على الرغبة في التعرف والتقارب ليأخذ أبعاداً أخرى ترتبط بالكشف عن الآخر وطبيعته استراتيجية دعاء الآخر

تقف الملك في مواجهة الملك دينياً فالخلاف بينهم لا يتأسس على خروج الملكة عن سلطة سليمان ولكن في خروجها عن السلطة الإلهية بعبادتها للشمس. يأتي فعل سليمان مؤسس على حسن دعوة الآخر لهذا الدين عن طريق الكتاب الكريم ، ثم اللجوء إلى أسس عقلية في الدعوة عن طريق تحويل الموجودات إلى علامات سيميائية دالة لها وظائفها التداولية وفق ما يلي:

تنكير الجماد وأبعاده السيميائية

لقد أخذت هدية الملكة طابعا تمويها فالغاية منها هي ترقب فعل سليمان من جهة واستطلاع قدرات جيشه من جهة أخرى ، وعليه يأتي فعل سليمان في تنكير العرش وإقامة صرح مرد من قوارير لصناعة علامات لتغيير وجهة نظر الملكة فإذا كان الفعل الأول تنكير العرش فعل خارق مسبوق بفعل آخر هو إحضار العرش في زمن قياسي إذا كان هذا الفعل الخارق لا يكفي لإحقاق دعوة سليمان حول وحدانية الله

إذ تجيب الملكة بمكر (كأنه هو) وعندها يلجأ سليمان إلى تنكير آخره تنكير الصرح فاذا كانت تضع العرش محل استفهامية ، فان دخول الصرح يرتبط بإنجاز فعل لا يدع مجالاً للشك " فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال انه صرح مرد من قوارير قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين " (سورة النمل الآية 140)

إن الصرح كان يكشف عما بداخله بما لا يدع مجالاً للشك في كونه حقيقة غير أن الحقيقة تختلف عن ذلك تماماً كما كان الشأن بالنسبة للشمس التي كانت تبدو هي الحقيقة المطلقة .

لقد كانت القوة معطى حاضر بشكل لافت في مملكة سليمان ولكن لم تستغل في فرض الدين على الآخر المخالف بل تأسس الأمر على تفعيل المدركات الحسية وتحويلها إلى علامات دالة عبر سيرورة متواصلة من التحولات وتتعاقد التجارب النبوية بوصفها تجارب إنسانية مطلقة إذ تطل صورة إبراهيم عن المعبود في عبادة الملكة للشمس وما تحتويه من رمزية نورانية وتطل صورة موسى في توبته بعد تحول صورة الجبل كما تابت الملكة بعد إدراك التحول على مستوى الصرح .

الهوامش والمراجع

- 1- أبو القاسم حاج حمد إستمولوجية المعرفة الكونية دار الهادي بيروت ط1/2004.
العالمية الإسلامية الثانية دار ابن حزم بيروت ط2/1996
- 2- إدريس سرحان طرق التضمين الدلالي والتداولي رسالة دكتوراه جامعة ظهر المهراز/فاس/المغرب
- 3- صموئيل هنتنغتون/ترجمة مالك عبيد أبو شهيوه/محمود محمد خلف
- 4- صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي الدار الجماهيرية للنشر ليبيا ط1/1999
- 5- طه عبد الرحمان الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري المركز الثقافي العربي ط1/2005
- 6- عبد الله إبراهيم المركزية الغربية المركز الثقافي العربي المغرب ط1/1997
- 7- عبد الوهاب المسيري اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود دار الشروق القاهرة ط2/2002